الفصل الأول

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة

نظرة تاريخية

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة

نظرة تاريخية

نظر النحاة التقليديون إلى اللغة المكتوبة باعتبارها أهم من اللغة المنطوقة، بل لقد وصفوا اللغة المكتوبة، وهم يريدون بها اللغة الأدبية، بأنها أنقى وأصح من نظيرتها المنطوقة. ولأنهم نحاة، فقد شغلوا – كما يقول ليونز – بالمحافظة على الصورة المكتوبة من الفساد[1].

وحتى الخمسينيات من القرن العشرين كانت شكوى بعض اللغويين من إهمال البحث الحقيقي الجاد في اللغة المنطوقة مازالت موجودة. يقول راندولف كويرك Randolf Quirk:

"بعد مرور ما يقرب من ثلاثمائة سنة من العناية الأكاديمية المتصلة والنشيطة باللغة الإنجليزية، مازلنا نفتقر إلى وصف للإنجليزية التي نتكلم بها، باعتبارها مقابلة للإنجليزية التي نكتبها"[2].

والحق أن هذه الشكوى لم تكن تخص – آنذاك – اللغة الإنجليزية فحسب، وإنما كانت تنسحب على اللغات الحية الأخرى دون استثناء تقريبًا (وننبه هنا إلى حاجة اللغة العربية حاجة ماسة إلى وصف علمي مفصل لصورتها المنطوقة). ونحن نعني ببحث اللغة المنطوقة هنا بحثها مقارنة بنظيرتها المكتوبة.

لقد ظل تقعيد اللغة وتحليل مستوياتها معتمدًا على الشكل المكتوب، باعتباره أساسًا للقراءة والتكلم، وباعتباره – كما تقول مريانه لوشمان Marianne Loschmann - تخزينًا لناتج عمليات الإرسال والاستقبال، أو القول والتلقي[3].

وبالرغم من أن رائدًا لغويًا مثل جون فيرث J. Firth قد دعا اللغويين – منذا أكثر من نصف قرن – إلى دراسة المحادثة، حيث إنها المفتاح إلى

---

(1) Lyons, John, Introduction to Theoritical Linguistics, Cambridge Uni. Press (1968) p. 42

(2) Quirk,R.,Colloquial English and Communication,in: Studies in Communication, London (1955) pp. 169-182, p. 169

(3) Loschmann, Marianne, Vom Lesen Zum Sprechen, VEB Verlag Enzyklopaedie, Leipzig, 1. Auflage (1985) S. 10

فهم أفضل لماهية اللغة ووظيفتها، فإن الدراسة الجادة للخطاب المنطوق Spoken Discourse لم يسبق إليها اللغويون، وإنما سبق إليها ونبه إلى أهميتها الاجتماعية علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا. ويفسر م. كالثارد M. Coulthard هذا الأمر بأن جميع علماء اللغة يتفقون على عملية الاتصال الإنساني human Communication التي توصف في حدود ثلاثة مستويات على الأقل هي: المعنى والصيغة والمادة (أو الخطاب والنحو والفونولوجيا)، ولكنهم – في الوقت نفسه يختلفون في حدود علم اللغة[1].

ويؤرخ العلماء للبداية الحقيقية لاكتشاف اللغة المنطوقة باعتبارها موضوعًا من موضوعات علم اللغة ببداية ستينيات من القرن العشرين. فمنذ تلك الفترة انتشر البحث بين اللغويين في اللغة المنطوقة مقارنة بنظيرتها المكتوبة من الناحيتين: النظرية والتطبيقية[2].

والحق أن للبحث في اللغة المنطوقة بداياته التاريخية الأولى. وهي بدايات ذات اتجاهات وغايات علمية شتى ومتزامنة أحيانًا كثيرة، وليست بالضرورة مراحل تاريخية متراتبة تؤدي مرحلة منها إلى مرحلة أخرى.

بناء على ذلك، يمكننا أن نوجز هذه المراحل فيما يلي:

(١) توجيه النظر منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى دراسة اللهجات وجمعها وبيان خصائصها ومقارنتها باللغة الأدبية أو المعيارية. وقد لعبت هذه الدراسات الأولى دورًا كبيرًا في تأسيس علم اللهجات Dialectology ويبدو لنا أن اللغة المنطوقة قد فهمت – في هذه المرحلة – على أنها تعني اللهجة أو اللغة الدارجة أو العامية.

(٢) نهضة البحث في الطبقات اللغوية Sprachschichtenforschung التي ارتبط النشاط فيها بموضوعات رئيسة في اللغة الدارجة

---

(1) Coulthard, Malcolm, An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group LTD, England (1977) p. 1

(2) Schank, Gerd/Schoenthal, Gisela, Gesprochene Sprache, Eine Einfuehrung in Forschungansaetze und Analysemethoden, 2., Durchgesehene Auflage, Niemyer Verlag, Tuebingen (1983) S. 1

Umgangssprache. وقد قفز هذا المجال إلى مركز الاهتمام في الخمسينيات من ذلك القرن.

وإذا كان التصنيف في مجال البحث في طبقات اللغة قد بدأ أول الأمر تصنيفاً ثلاثيًا: اللغة المكتوبة geschriebene Sprache، واللغة الدارجة Umgangssprache واللهجة Mundart، فقد أيد البحث النحوي تصنيف اللغة تصنيفاً ثنائيًا؛ أي إلى اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة. من أجل ذلك، يمكن القول بأن السبب غير المباشر للبحث في اللغة المنطوقة في الستينيات من القرن العشرين قد نتج عن البحث النحوي.

لقد ترك هذان الاتجاهان آثارهما الواضحة في تغير مجال البحث وتوجيه مساره. إنهما يشكلان ما دار حول اللغة المنطوقة في المنطقة الألمانية الجنوبية من بحوث، على نحو ما نجد منذ منتصف الخمسينيات من القرن العشرين في حلقة توبنجن Tuebingen البحثية وانتقالها من علم اللهجات إلى البحث في اللغة المنطوقة بحثًا توصيفيًا أوسع.

تحول البحث في الطبقات اللغوية إذن إلى بحث في اللغة المنطوقة. واستعان في ذلك بمقولات سوسيولوجية مثل: دراسة حالة المتكلم، ودوره، ومكانته الاجتماعية. وهي مقولات اتضحت أهميتها للتوصيف اللغوي وتزايدت قيمتها في استخلاص معطيات تجريبية[1].

(٣) لقد ظل علم اللغة فترة طويلة علمًا تاريخيًا في الأساس. ومع تغير طرق البحث من طريقة النظر التاريخي في اللغة diachronisch إلى النظر الوصفي synchronisch إثر رائد علم اللغة السويسري فرديناند دو سوسير F. de Saussure والبنيوية الأمريكية amerikanischer Strukturalismus صار بحث اللغة المنطوقة من الأسس المهمة في البحث اللغوي بعامة.

لقد رأى دوسوسير وأتباعه من البنيويين أمثال سابير Sapir وبلومفيلد Bloomfield وهوكت Hokett وجليسون Gleason رأوا جميعًا أن الشكل المكتوب للغة ليس إلا تسجيلاً ماديًا لأصوات حية منطوقة. ولعل

(1) Schank / Schoenthal, op. cit., SS 2-3

خير شاهد على ذلك قول بلومفيلد مثلاً: "إن الشكل المكتوب ليس لغة، ولكنه طريقة لتسجيل اللغة بواسطة إشارات ورموز مرئية"[1]، كأنما أراد بلومفيلد أن يؤكد أن اللغة في أوليتها هي اللغة المنطوقة.

لقد جعل هذا التغيّر من اللغة المنطوقة المعاصرة موضوعًا جديرًا بعناية العلماء. ومع التوجه إلى الدراسة الوصفية كان في مقدمة القضايا اللتي أثيرت:

(أ) إمكانية وجود نظام تخضع له اللغة.

(ب) أن لهذا النظام اللغوي كيفية بعينها يتجلّى فيها.

ومن هنا تراجعت قضايا التغير اللغوي تراجعًا بعيدًا لفترة من الزمن. وفي هذه الظروف دأب العلماء على طرح إشكالية محددة: إن كانت اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة تكونان نظامًا واحدًا يرتبط بلغة بعينها. وقد أدى إلى إثارة هذه الإشكالية ما لاحظه العلماء من فروق بين هذين الشكلين في مجال النحو بوجه خاص.

هذه المرحلة تدين إذن بالفضل للبحث اللغوي البنيوي في أمريكا؛ لأنه وجه اهتمامه الأكبر نحو اللغة المنطوقة. وقد بدأ هذا الاهتمام بالتوجه إلى المصادر الشفهية للغة. وبمحاولات تصنيف اللغات الهندية في أمريكا. وتذكر هنا جهود فريز CH. C. Fries في الحصول على تسجيلات صوتية هائلة لمحادثات تليفونية[2].

(٤) ومنذ الخمسينيات من القرن العشرين جدّ أحد اتجاهات علم الاجتماع الأمريكي وهو الاتجاه الإثنوميثودولوجي Ethnomethodologie في دراسة التفاعل اللغوي اليومي. ويعد هذا الاتجاه في حقيقته القسم الرابع من (التفاعلية الرمزية) Symbolic Interaction التي أسسها عالم الاجتماع الأمريكي جورج هربرت ميد G. H. Mead سنة ١٩٣٧م، فقد سبقت الإثنوميثودولوجيا بمدرسة بلومر Blumer التي التزمت بفلسفة هربرت ميد التزامًا كليًا، ثم مدرسة جوفمان Goffman التي قدمت

(1) Bloomfield, L., Language, Uni. Of Chicago, U. S. A., (1984) p. 281
(2) Schank / Schoenthal, op. cit. SS. 3-4

شكلاً جديدًا في التحليل الاجتماعي للذات من خلال اتجاه مؤسسها الجديد الذي أطلق عليه (الاتجاه المسرحي). وقد تلا ذلك كله مدرسة كون Kuhn التي ركزت على المجال التجريبي للنظريات التفاعلية[1].

على أية حال، فإن أنصار التفاعلية الرمزية قد ذهبوا إلى أن الذات هي الموضوع الأساسي للتفاعل، حيث تحمل في طياتها كمًا هائلاً من التفسيرات المختلفة والمعاني. وقد ربط ميد بين فكرة الذات الفاعلة وعالم الرموز واضعًا الأساس النظري للتفاعلية الرمزية[2].

وقد تأثرت الإثنوميثودولوجيا بالتفاعلية الرمزية، بل بفينومينواوجيا هوسرل Husserl وشوتس Schutz [3] من حيث دراسة الخبرات المشتركة بين أفراد المجتمع، ودراسة طرقهم ومناهجهم التي ينتهجونها في حياتهم اليومية، وما ينتج عنها من أنماط سلوكية، وما تشير إليه من خصائص عقلانية تمكنهم من التفاعل فيما بينهم. ويشير جارفينكل Garfinkel مؤسس الإثنوميثودولوجيا إلى أن هذا الاتجاه يقوم على ملاحظة العقلانية الاجتماعية العملية Practical Sociological Reasoning، ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه بعامة أنه مهتم بدراسة الحياة اليومية والواقع اليومي، يقول ميهان Mehan وود Wood:

"تعرف الإثنوميثودولوجيا أحيانًا بأنها أسلوب منهجي، وقد تعرف على أنها نظرية، وتعرف أحيانًا أخرى بأنها نظرة معينة إلى العالم... والرأي عندنا أن الإثنوميثودولوجيا ليست منهجًا، ولا نظرية، ولا حتى

---

(1) لمزيد من التفاصيل راجع: زينب شاهين (دكتورة): الإثنوميثودولوجيا: رؤية جديدة لدراسة المجتمع، مركز التنمية البشرية والمعلومات، القاهرة (١٩٨٧) ص٣٠.

(2) د/ مريم أحمد مصطفى: قضايا التنظير للتنمية في العالم الثالث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (١٩٨٥) ص٧٥

(3) انظر في تفصيل ذلك :

- د/ مريم أحمد مصطفى: قضايا التنظير ص٧٢ وما بعدها
- د/ قباري محمد إسماعيل: أصول علم الاجتماع، دار الكتب الجامعية (١٩٧٨) ص٣٤٣ وما بعدها.
- Leiter, Kenneth A Primer on Ethnomethodology, Oxford University Prss, N. Y. (1980) pp. 4-5>

نظرة إلى العالم. إنها صورة للفعل الاجتماعي، تمكننا من معرفة وجهات نظر الجماعة إلى العالم"[1].

والذي يعنينا هنا هو أن الإثنوميثودولوجيا قد جعلت كلام الأفراد الواقعي جانبًا أساسيًا من جوانب التفاعل الاجتماعي اليومي everday social interaction. وإذا كانت الإثنوميثودولوجيا تسعى إلى محاولة فهم الأفراد من الداخل عبر تصوراتهم العقلانية التي يكونونها خلال علاقات التفاعل مع الآخرين ومن خلال المعاني الذاتية التي يضفونها على أفعالهم، فقد كان الطبيعي أن تستند الإثنوميثودولوجيا إلى لغة الحياة اليومية. وأن تجعلها عاملاً رئيسًا من عوامل تشكيل النظام في المجتمع. ولذلك احتلت اللغة مكانًا أساسيًا في البرنامج الإثنوميثودولوجي الذي يذهب إلى أن البناء والتصنيف اللغوي وأساليب الاتصال بين الأفراد هي التي تؤدي إلى ظهور النشاط الاجتماعي المنظم وتعبر عنه.

إن قيمة هذه الرؤية الجديدة تكمن في أن اللغة تعد وسيطًا لإنجاز أفعال اجتماعية علمية؛ أي أنها وسيلة لتشكيل الواقع الاجتماعي[2].

لقد رفضت الإثنوميثودولوجيا فكرة اللغة من حيث هي نسق مستقل عن متكلم بعينه وخارجي وملزم ومجرد ومنتشر وعام ويعمل في أي سياق. وقد عبر عن هذه الرؤية الجديدة جون ركس J. Rex حين ذهب إلى أن دراسة المعاني التي يسلم بها الأفراد في لغتهم اليومية تؤدي إلى الأساس الحقيقي للنظام الاجتماعي، وهو ما يعني أن استخدام اللغة يتضمن قبول الأفراد الذين يستخدمونها لنظام معياري معين[3].

---

(1) Grafinkel, Harold, Studies in Ethnomethodology, Englewood Cliffs, New York (1967) p. 11

(2) د/ محمد حافظ دياب: الإثنوميثودولوجيا: ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الثالث (١٩٨٤) ص١٦١

(3) د/ أحمد زايد: علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، دار المعارف بمصر ١٩٨١، ص٤٦٤.

وتعد بحوث شيكوريل Cicourel في اللغة المنطوقة في أقسام الشرطة من أهم البحوث الإمبيريقية في الاتجاه الإثنوميثودولوجي. وقد أوضحت هذه البحوث أن التصنيفات النظرية والقانونية والسجلات الرسمية التي تمثل الأساس لعلم الاجتماع الكمي هي كلها أقنعة تخفي وراءها عمليات مقابلات ومواجهات encounters، تتضمن كثيراً من المفاوضات والجدل والمساومات... الخ.

وقد أوضحت المقارنة بين السجلات الرسمية ومضمون المقابلات الواقعية الأساليب اللغوية والاجتماعية المنظمة التي يتم بمقتضاها تصنيف الأفعال وفهمها وتقييمها. وعلى هذا تعد اللغة الموجودة في السجلات الرسمية صياغة منقحة للغة الحياة اليومية. ومن ثم تنبعث قيمة اللغة بالنسبة لعلم الاجتماع الإثنوميثودولوجي في أن حديث الأفراد والطريقة التي يتحدثون بها والمجال الذي يتم فيه الحديث، كل هذا يشكل بالفعل الواقع الاجتماعي. فالعالم الاجتماعي – في نظر الإثنوميثودولوجيا – هو إنجاز وتحقيق عملي practical accomplishment من جانب هؤلاء الذين يؤدون به فعلاً. وتلعب اللغة دورًا رئيسًا في هذا الإنجاز[1].

لقد عنيت الإثنوميثودولوجيا بدراسة كيفية تنظيم المواقف العملية في الحياة اليومية بطريقة اجتماعية. هذه المواقف التي تظهر تلقائيًا من خلال توقعات كلية أو جزئية في لغة الحياة اليومية للأفراد. ومن هنا يمكن استيضاح محدداتها الأساسية في:

(أ) رفض فكرة النظر إلى اللغة من حيث هي نسق مستقل وخارجي عن الموقف.

(ب) أن اللغة أساس اجتماعي بوصفها وسيطًا لإنجاز الفعل الاجتماعي ووسيلة لتشكيل الواقع.

(ج) أن تحليل لغة الحياة اليومية يهدف إلى الكشف عن القوانين التي تحكم استخدام الأفراد لتلك اللغة.

---

(1) د/ زينب شاهين: الإثنوميثودولوجيا ص٩٨

ويرى تسيمرمان Zimmermann أن لغة الحياة اليومية قد أهملتها المقولات اللغوية. كالنحو والدلالة، على رغم إمكاناتهما الكبرى في دراستها. وهذا هو ما حدا بالإثنوميثودولوجيا إلى التركيز عليها بوصفها هدفًا اجتماعيًا وتفاعليًا.

ومن هنا يجب أن تلاحظ في سياقها، وأن توصف في حد ذاتها، لا باعتبارها مجرد مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية. وهي بهذا الفهم اجتماعية في الأساس[1].

من كل ما سبق يتبدى لنا خصوبة الأفكار التي استند إليها هذا الاتجاه. ومن أجل عنايته الأساسية بالأبعاد السوسيولوجية للظاهرة اللغوية، واهتمامه الفائق بالممارسات الحية للغة الحياة اليومية وبالجوانب الإمبيريقية في بحث هذه اللغة في سياقات ومحيطات لغوية اجتماعية مختلفة.

نقول: من أجل هذه الأسباب كلها نظر إليه اللغويون من زاوية لغوية، وجعلوه فرعًا لغويًا يأخذ بمقولات سوسيولوجية، وهو فرع علم اللغة الإثنوميثودولوجي، الذي ينهض على أساس ربط العمليات الكلامية الحية بعقلانية الأفراد الذين تصدرعنهم تلك العمليات.

(٥) ولعل النهضة الكبرى التي شهدتها دراسة اللغة المنطوقة هي تلك التي أنتجها تقدم البحث وتنوعه في علم اللغة الاجتماعي، فإذا كان علم اللهجات يمثل مركز الثقل في بحث اللغة المنطوقة، فإن لعلم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics أهميته الكبرى في بحث الاستخدام اللغوي الشفهي.

ويحدد شانك / شونتال الصلات بين المجالات البحثية السابقة عن طريق الشكل الإجمالي التالي[2]:

---

(1) د/ محمد حافظ دياب: الإثنوميثودولوجيا: ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة ص٣١٦

(2) Schank / Schoenthal, op. cit., S. 3

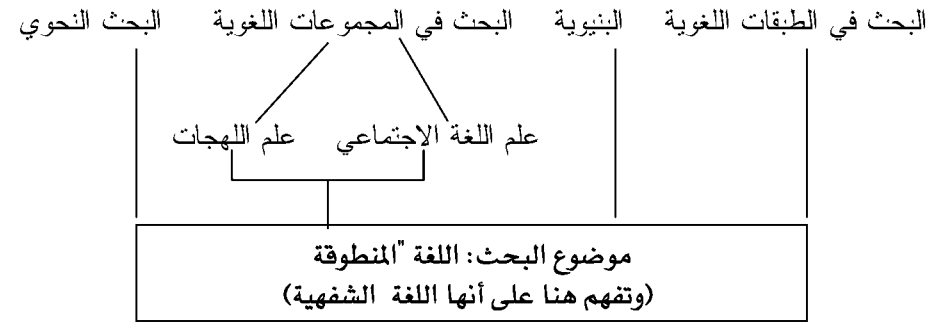

الشكل (١)

وينبغي الإشارة هنا إلى أن البحث في اللغة المنطوقة يتماس في بعض نقاطه مع كل من علم اللهجات وعلم اللغة الاجتماعي. ويبدو هذا التماس في موضوعات البحث في هذه المجالات، كما يبدو في تطبيق المناهج الإجرائية[١].

وتكمن الفروق الجوهرية بين اللغة المنطوقة وهذين الفرعين في أن علم اللهجات يهتم اهتمامًا أوليًا بالاختلافات الإقليمية في اللغة، وفي أن علم اللغة الاجتماعي يهتم اهتمامًا أوليًا بأثر الاختلافات الاجتماعية في اللغة.

أما البحث في اللغة المنطوقة، فيعني عناية خاصة بالاختلافات اللغوية المشروطة بالموقف Situation والمرتبطة به. ومما يذكر هنا أن علم اللهجات قد أمد المجالين الآخرين بالعناية المطلوبة، من حيث بحث مسائلهما وتقصيها على نحو تاريخي diachronisch[٢].

من ناحية أخرى، فإن دراسات اللغة المنطوقة قد قادت إلى مناقشة مفهوم الكفاية اللغوية Kompetenz عند تشومسكي Chomsky، ومناقشة مفهومه عن المتكلم والمستمع المثالي (أو المفترض) في جماعة لغوية متجانسة، بل لقد قادت هذه الدراسات إلى نقد مفهوم الكفاية

---

(1) منها مثلاً عناية علم اللهجات وعلم اللغة الاجتماعي حديثًا باللغة المنطوقة (إلى جانب عنايتهما الأساسية بالألفاظ المفردة والجمل المفردة في الأول، واللغة المكتوبة في الثاني). ومنها اشتراك هذه المجالات جميعًا في العناية بأثر السياق والطبقة الاجتماعية في التركيب اللغوي.

(2) Schank / Schoenthal, op. cit. SS. 3-4

ذاته وتطويره[1]. أضف إلى كل ما سبق، أن الأعمال التي أجريت على اللغة المنطوقة حتى الآن، قد استطاعت أن تكسب علم اللغة بعدًا تجريبيًا وعلاقة جديدة بمناهج البحث التجريبية، بعد مرحلة ساد فيها الحدس والافتراض بتأثير مدرسة تشومسكي في النحو التوليدي التحويلي (TGG). وينبغي بعد كل ذلك، أن ننوه بقيمة إسهام البحث في اللغة المنطوقة، متضامنًا في ذلك مع علم اللغة النصي Textlinguistik وفلسلفة اللغة التحليلية في مجاوزة اللسانيات الحديثة حدود الجملة عبر مفاهيم مثل: أنماط النص Textsorte،والنحو الأكبر Makrosyntax، والفعل الكلامي Sprechakt وسلسلة الفعل الكلامي Sprechaktsequenz وتغيير المتكلمين Sprecherwechsel[2] ونحوها.

---

(1) والحق أن مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي يعد تطويرًا لمفهوم (اللسان) عند دوسوسير؛ فاللسان عنده: "مخزن يودع عن طريق ممارسة الكلام في الأشخاص الذي ينتمون إلى الجماعة نفسها، ونظام نحوي يوجد بالقوة في كل دماغ".
أما الكفاية، فهي ليست مجرد مستودع في الدماغ، بل هي – كما يصفها مارك ريشل – قدرة نفسانية خلاقة عند الشخص الناطق. إنها عملية ابتكار لأن أهم خواصها يتمثل في إصدار عبارات جديدة وتأويلها باستمرار رغم خضوع هذه العبارات دائمًا إلى أحكام القواعد نفسها (مارك ريشل: اكتساب اللغة، ترجمة د/ كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط أولى (١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م)، ص١٤
وعلى رغم ذلك، فإن أهم ما وجه إلى مفهوم الكفاية من نقد أنه ركز على الشخص الناطق وقدرته على توليد الكلام، في الوقت الذي أغفل فيه إغفالاً يكاد يكون تامًا المحيط الاجتماعي وملابسات الموقف الاجتماعي التبليغي؛ فالمعنى اللغوي للملفوظ لا ينتهي عند حدوده النحوية بل يكتمل في سياقه الموقفي Context of Situation، باعتبار اللغة في جوهرها شكلاً من أشكال السلوك، وباعتبار الفعل الخطابي – كما يقول توماس لوكمان – عملية اجتماعية داخل حالة ديناميكية. (توماس لوكمان: علم اجتماع اللغة، تعريب د/ أبو بكر أحمد باقادر، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط أولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) ص٨٨

(2) Sachnk / Schoenthal, op. cit. S. 5